

تفسير ابن كثير

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ^ق أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ^ق وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ^ق أَفَلَا تَعْقِلُونَ

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسوله من الرجال لا من النساء . وهذا قول جمهور العلماء ، كما

دل عليه سياق هذه الآية الكريمة : أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي

تشريع . وزعم بعضهم : أن سارة امرأة الخليل ، وأم موسى ، ومريم أم عيسى نبيات ،

واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، وبقوله : (

وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) الآية . [القصص : 7] وبأن الملك جاء إلى مريم

فبشرها بعيسى - عليه السلام - وبقوله تعالى : (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك

وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين)

[آل عمران : 42 ، 43] . وهذا القدر حاصل لهن ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات

بذلك ، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف ، فهذا لا شك فيه ، ويبقى الكلام

معه في أن هذا : هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرد أم لا ؟ الذي عليه [أئمة

[أهل السنة والجماعة ، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم

: أنه ليس في النساء نبية ، وإنما فيهن صديقات ، كما قال تعالى مخبرا عن أشرفهن مريم

بنت عمران حيث قال : (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه

صديقة كانا يأكلان الطعام) [المائدة : 75] فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية ،

فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام ، فهي صديقة بنص القرآن . وقال

الضحاك ، عن ابن عباس في قوله : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل

القرى) أي : ليسوا من أهل السماء كما قلتم . وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله

تعالى : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق)

الآية [الفرقان : 20] وقوله تعالى : (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا

خالدين ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين) [الأنبياء : 8 ، 9]

وقوله تعالى : (قل ما كنت بدعا من الرسل) الآية [الأحقاف : 9] . وقوله : (من أهل

القرى) المراد بالقرى : المدن ، لا أنهم من أهل البوادي ، الذين هم أجفئ الناس طباعا

وأخلاقا . وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعا ، وألطف من أهل سوادهم

، وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون في البوادي؛ ولهذا قال تعالى : (الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) [التوبة : 97] . وقال قتادة في قوله : (من أهل القرى) لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود . وفي الحديث الآخر : أن رجلا من الأعراب أهدى لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ناقة ، فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضي ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : " لقد هممت ألا أتهب هبة إلا من قرشي ، أو أنصاري ، أو ثقيفي ، أو دوسي " . وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن يحيى بن وثاب ، عن شيخ من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال الأعمش : هو [ابن] عمر ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم " . وقوله : (أفلم يسيروا في الأرض) [يعني : هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض] (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) أي : من الأمم المكذبة للرسول ، كيف دمر الله عليهم ، وللكافرين أمثالها ، كقوله : (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار

ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) [الحج : 46] ، فإذا استمعوا خبر ذلك ، رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين ، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه ; ولهذا قال تعالى : (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) أي : وكما أنجينا المؤمنين في الدنيا ، كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة أيضا ، وهي خير لهم من الدنيا بكثير ، كما قال تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) [غافر : 50 ، 51] . وأضاف الدار إلى الآخرة فقال : (ولدار الآخرة) كما يقال : " صلاة الأولى " و " مسجد الجامع " و " عام الأول " و " بارحة الأولى " و " يوم الخميس " . قال الشاعر : أتمدح فقعسا وتدم عبسا ألا الله أمك من هجين ولو أقوت عليك ديار عبسعرفت الذل عرفان اليقين